

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

[15] على أنفسهم بما ارتكبوه من فطيع الفعّال، وما اقترفوه من شنيع الأعمال إذ قالت: "أظننت يا يزيد ... أنّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك ييمستوثقة والأُمور متّسقة، وحين صفا لك مُلكنا وسلطاننا، فمه مه أنسيت قول الله عزّ وجلّ: (ولا يحسبن الذين كفروا أنّهم نملي لهم خيراً لأنفسهم إنّهم نملي لهم ليزدادوا إثماً) ولهم عذاب مهين) ". جواب على سؤال: إنّ الآية الحاضرة تجيب ضمناً على سؤال يخالغ أذهان كثير من الناس وهو: لماذا يرفل بعض العصاة والمجرمين في مثل هذا النعيم، ولا يلحقون جزاءهم العادل على إجرامهم؟ يفرّغ القرآن الكريم يردّ على هذا التساؤل الشائع قائلاً: إنّ هؤلاء فقدوا كل قابلية للتغيير والإصلاح، وهم بالتالي من الذين تفتضي سُنّة الخلق ومبدأ حرّية الإنسان واختياره أن يتركوا لأنفسهم، ويوكّلوا إلى أنفسهم ليصلوا إلى مرحلة السقوط الكامل، ويستحقوا الحدّ الأكثر من العذاب والعقوبة. هذا مضافاً إلى ما يستفاد من بعض الآيات القرآنية من أنّه سبحانه قد يمدّ البعض بالنعيم الوافرة وهو بذلك يستدرجهم، أي أنّهم يأخذهم فجأة وهم في ذروة النعم، ويسلبهم كلّ شيء وهم في أوج اللّذة والتمتع، ليكونوا بذلك أشقى من كلّ شقي، ويواجهوا في هذه الدنيا أكبر قدر ممكن من العذاب، لأن فقدان هذا النعيم أشدّ وقعاً على النفس، وأكثر مرارة كما نقرأ في الكتاب العزيز: (فلمّا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) (1). _____ 1 - الأنعام، 44.